المحاضرة 2 تابع للمدخل المفاهيمي

مقومات الهوية الثقافية

تستند الهوية الثقافية للمجتمعات على مقومات أساسية تضمن لها نوع من التجانس والانسجام الفكري والعاطفي بين أفراد المجتمع الواحد، فهي عبارة عن مؤشر لعمليات التعرف والتفرقة والمقارنة بين الأنساق الاجتماعية المختلفة، إلا أن عمق تأثير هذه المقومات على الفاعلين الاجتماعين يختلف حسب طبيعة البناء الاجتماعي وتركيبه وصيرورته التاريخية، فالشعوب التي تفتقد إلى المقومات الأساسية لهويتها كثيرا ما تعاني من الصراعات المختلفة مثلا كالصراعات العرقية (جنوب إفريقيا).فهذا معناه أن الهوية الثقافية تتكون من عدة عناصر مرتبطة ببعضها، وأي خلل في أحدها يؤدي إلى خلل في باقي مكوناتها، ومن أبرز هذه المكونات:

1-اللغة:

اللغة كما يقول بعض علماء اللسانيات:" هي نظام المنظمة الرمزية في الحياة البشرية (....)، فهي التحقيق والتعبير الصوتي لميول الإنسان، وقيمتها ليست في طبيعتها ولا في مكوناتها الداخلية، إنما لكونها تفسر وتحلل رؤية الأفراد للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرون بها، بطريقة إبداعية رمزية" (بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002، ص 82). وضع **إدوارد سابير** الأسس التي تربط علم الأنثروبولوجيا بدراسة اللغة، فقد حدد العلاقة التي تربط اللغة بالمجتمع كما يلي:" إن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناؤها ويفكرون بواسطتها، هي التي تنظم تجربة هذا المجتمع، وهي التي تصوغ بالتالي عالمه وواقعه الحقيقي، فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم، (...)إن اللغة تتحكم كثيرا في أفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية، ومن الخطأ تصور أن الإنسان يتكيف مع واقعه دون استخدام اللغة، أو أنها مجرد وسيلة لحل مشاكل الاتصال والتفكير، إن العالم في الواقع مبني بطريقة لا واعية على أساس العادات اللغوية وعلى أساس استعمالاتهم للغتهم الأم" (بسام بركة، 2002، ص 84).

ووصفها موس Mosse بروح الشعب قائلا "إن روح الشعب هي القوة الخفية المعنوية التي تسيطر على الجماعة فتفرض الترابط وتتحدى الأحداث وتنتظر اللحظة المناسبة لتتفجر حقيقة واقعة، فإذا بها أمة ودولة، بل وظيفة حضارية وقيمة إنسانية. إنها محور التطور، وما روح الشعب؟ وما الذي يسمح باستمراريتها رغم

الأحداث؟ إنها اللغة أقدس الأقداس" (سمدون حمادي وآخرون، اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984 ص259).

ولهذا تعد اللغة المكون الأول والرئيس في الهوية الثقافية، فهي حياة الأمة وهي بدايتها ونهايتها، لأن اللغة في أي مجتمع ليست مجرد كلمات وألفاظ للتفاهم بين أفراد المجتمع، ولكنها وعاء يحوي مكونات عقلية ووجدانية ومعتقدات وخصوصيات هذا المجتمع، وبالتالي فالحفاظ على اللغة يعني ضمان بقاء واستمرارية أي مجتمع.

2-الدين:

في مطلع القرن 20م رأى بعض منظري الظاهرة الدينية أمثال (دوركايم، مالينوفسكي، فيبر) أن الدين ظاهرة مميزة لكل المجتمعات البشرية الماضية، والحاضرة، والمقبلة"(ر.بودونوف.بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة حداد سليم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص 316).كمايقول " وليم جيمس :"أن الإيمان بالله هو الذي يجعل للحياة قيمة، وهو الذي يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة، وهو الذي يجعلنا نتحمل كل ما في الحياة من محن، ونتقبلها بكثير من الشجاعة والرضا، وهو الذي يهيئ لنا كل ما هو ضرورة لحياة وادعة". فلا يمكن تصور وجود للهوية الثقافية إلا بوجود الدين باعتباره سمة مميزة للمجتمعات البشرية، وأداة لمقاومة الاغتراب الثقافي. فالدين هو المكون الرئيس للهويةالثقافية، لأنه هو الذي يحدد للأمة فلسفتها الأساسية عن سر الحياة وغاية الوجود، كما يجيب عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها وعلى الإنسان في كل زمان ومكان.

3-العادات والتقاليد:

عبر عنها بيار بورديوpierre bourdieu بمفهوم habitus وعرفها ب"النزوع الشخصي الاجتماعي"(عبد الغاني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والاشكاليات....من الحداثة إلى العولمة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2006، ص35).ونقصد من هذا المفهوم عملية إنتاج الأفكار الاجتماعية، ثم إعادة إنتاجها مع تغير الظروف الاجتماعية، واستمرارية هذا النشاط مع استمرارية تطور النسق الاجتماعي، وتنقسم العادات التي يكتسبها الفرد إلى عادات فردية وأخرى اجتماعية. كما تحدث ابن خلدون عن أهمية العادات، وكيف أن الإنسان ابن عوائده، لا ابن طبيعته إذ يقول "إن أهل البداوة أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة"(ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، تحقيق حامد أحمد طاهر، دار الفجر لتراث، القاهرة، ط 1، 2004، ص 458) ويشير هذا

القول أن الجماعة تكسب العادة عن طريق التعلم وهي تستمر وتدوم ما دامت تقوم بوظيفة معينة، فإذا زالت الوظيفة زالت العادة، فطبيعة الإنسان تفرض عليه إقامة صرح من العادات والمعتقدات، وهو بذلك يرسي دعائم المجتمع. تعبر بعض العادات على الانتماء المشترك لممارسيها فتصير بذلك جزء لا يتجزأ من الهوية الثقافية للمجتمع.

أما التقاليد فهي العادات التي انتقلت عبر الأجيال حتى فقدت مضمونها، ولم يعد من الممكن أحيانا التعرف على معناها الأصلي، إنما يمارسها الإنسان لمجرد المحافظة على هويته الثقافية، وتبقى في الأخير شكل من أشكال الرواسب الثقافية في المجتمع، لها سلطان على نفوس الأفراد. وعبر عن ذلك هابرماسharbermas أن تقليد السلف ما هو إلا "غريزة المجتمع"(عبد الغاني عماد، 2006، ص156).

والذي نستخلصه أن العادات هي أكثر عمومية وقابلة للتغير بتغير الزمان والمكان؛ فمثلا الطعام حاجة اجتماعية ثابتة، أما تحضيره وكيفية صنعه وطريقة تقديمه وأسلوب تناوله خاضعة جميعها لعادات متغيرة وفق الزمان والمكان، أما التقاليد فهي أكثر ثباتا وجمودا، إذ تحفظ الهوية الثقافية للجماعة، وقد تتعرض للتغيير بفعل التثاقف المستمر مع الثقافات الأخرى. ويرى بعض الأنثروبولوجيين أن العادات والتقاليد تتقوى بعوامل عديدة منها صغر حجم المجتمع، وسيادة النظام الطبقي الهرمي، وربما أهم عامل يرجع إلى انعزال المجتمع عن مظاهر التثاقف المختلفة.

4-التاريخ:

لا يمكن لأية أمة أن تشعر بوجودها بين الأمم إلا عن طريق تاريخها؛ الذي يمثل أحد قسمات هويتها، فالتاريخ هو السجل الثابت لماضي الأمة وديوان مفاخرها وذكرياتها، وهو آمالها وأمانيها، بل هو الذي يميز الجماعات البشرية بعضها عن بعض، فكل الذين يشتركون في ماض واحد يعتزون ويفخرون بمآثره يكونون أبناء أمة واحدة، فالتاريخ المشترك عنصر مهم من عناصر المحافظة على الهوية الثقافية، وعلى ذلك يكون طمس تاريخ الأمة أو تشويهه أو الالتفاف عليه هو أحد الوسائل الناجحة لإخفاء هويتها أو تهميشها .

خلاصة

إن الفهم الكثير من الوقائع والأحداث في العهد التركي يتطلب من الباحث أن يرجع إلى أغوار الماضي؛ ذلك أن تفهم كثير من الوقائع والأحداث في العهد التركييتطلب فهما عميقا للخصائص المميزة للشخصية الجزائرية، والخصائص المميزة التي تتشكل منها الشخصية الجزائرية تتطلب دراسات تتناول العهود التي

سبقت دخول العرب واستقرار الإسلام بالجزائر.....فإن الذي يبحث كل العهود التاريخية الماضية يجد أن هناك وقائع لا تفسرها إلا خطوط مستمرة تمثل المعالم المميزة للشخصية الجزائرية، وهذه الخطوط المميزة للشخصية الجزائرية نجدها دائما واحدة لا تتغير سواء في العهد الفينيقي أو فيما تلاه من العهود؛ وهذا لا يعني أننا نريد التقليل من أهمية العنصر العربي الإسلامي ومبلغ تأثيره في تركيب الشخصية الجزائرية، ولكنه يعني أن الشخصية الجزائرية سابقة في تكوينها لظهور الإسلام والحضارة التي انبثقت منه" (تاريخ الجزائر، مبارك الميلي، ص 11)